نحل بلاداً كلها حُل قبلنا
ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

هذه البلاد المحلولة قبل تلك العصافير هي بلاد النص الفسيحة، ولكن اللاحق فيها لا يكتفي بالسكنى في أطلال السابقين، ذاك لأنه يرجو الفلاح بعد عاد وحمير. وما يزال مجال الفلاح ممكناً ومفتوحاً. هذا ما نحن فيه من المتردم الذي لم يغادره ـ ولن يغادره ـ النقاد. وهذا مسعى أدى إلى إثراء المنظومة الاصطلاحية والجهاز المفهوماتي في مجالي النقد والنظرية الأدبية. وهما مجالان يدوران حول الأدب بوصفه مادة للكتابة ومادة للقراءة، وحول علاقة المنجَز الإبداعي بالواقع محاكاة أو تجاوزاً، مشاكلة أو اختلافاً، مما يتمخض عن واقع معطى أو واقع مبني.

على أن فحص حال المشاكلة أو حال الاختلاف يتأتى من النص ذاته ومن القراءة. فالنص قد يكون مادة حية وحيوية تسمح لنفسها بالانفتاح على ما سواها من نصوص مثلما ينفتح على القارىء المطلق الذي لا يخضع لشروط الظرفية. وهذا هو النص المفتوح الذي يقابل النص المغلق الذي يعجز عن بلوغ ذلك المستوى من النصوصية ومن المقروئية، وهذا هو نص المشاكلة بينما المفتوح هو نص الاختلاف.

ولكن كيف نلامس هذه المفهومات النظرية ملامسة حية وفاحصة، كيف نتبين الاختلاف والانفتاح ونميزها عن المشاكلة والانغلاق.

هذه هي أطروحة هذا الفصل وسأدخل إليها من خلال بيت